القلب المضيء

عباد بن بشر

رضي الله عنه

هل يضيء الإسلام حياتك؟

« ما أجمل هذا الحديث ».

همس بها عباد بن بشر وهو يجلس مستمعا إلى إحدى ندوات مصعب بن عمير، الذي أرسله الرسول ﷺ إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة من البعثة، ليعلم من أسلم تعاليم الإسلام وينشر الإسلام في المدينة.

كان عباد بن بشر وقتها شابا رقيقا في الحادية والثلاثين من عمره، أعجبه مصعب بن عمير بلباقته ووسامته وعرضه الجيد لفكرة الإسلام، كما أعجبه فكر الإسلام الذي يدعوالى السلام والرحمة، في وقت كانت المدينة قد انتهت من حرب ضروس، لم تجف دماؤها بعد بين الأوس والخزرج..

رأى عباد بحسه المرهف في حديث مصعب بن عمير، دينا رقيقا يدعو إلى الحب والتعاون والحياة، ووسيلة لفك صراعات طالما عانوا منها في المدينة..

ورأى في حديث مصعب، علاقة بينه وبين الله خالق الكون، طالما كان يبحث عنها عباد..

ولقد وجدها عباد الآن..

وأسلم عباد بن بشر...

كان عباد من الأوس..وكانت أول مشكلة يواجهها مصعب في المدينة، هى حالة التوتر التى كانت بين الأوس والخزرج، وكان معظم من بايعوا الرسول ﷺ في بيعة العقبة الأولى من الخزرج، وكان من الخطورة أن يكون الإسلام في المدينة خزرجيا، وتصبح الجاهلية من نصيب الأوس فيستمر العداء ولكن بشكل مختلف..

ودخل عباد الإسلام ليساعد مصعبا في أن تسير الأمور في الاتجاه الذي يريده، فاندفع في الدعوة إلى الله في المدينة مع مصعب وأصحابه، حتى لم يبق بيت في المدينة إلا وفيه ذكر الرسول ﷺ...

نجحت الخطة نجاحا كبيرا في غضون عام واحد فقط، وفي موسم الحج.. يخرج عباد مع ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين إلى مكة، لعقد اجتماع تاريخي مع رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية..

وينجح الاجتماع التاريخى نجاحا مبهرا، ويتفتح ذهن عباد بن بشر أكثر وأكثر على رسالة الإسلام، والتى بدأت تأخذ بعدا سياسيا خطيرا، متمثلا في حماية الرسول ﷺ والتضحية من أجله بالحياة والمال وبكل شيء.

لقد أصبح الأمر الآن أكثر خطورة، ولكن «عبادا» وجميع الأنصار، كانوا على أتم الاستعداد وعلى قدر المسئولية..

ويستكمل عباد مع مصعب وإخوانه رسالتهم الدعوية في المدينة بنجاح، حتى يأتي الوقت الذي طالما انتظره الجميع بفارغ الصبر...

هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة..

* * *

بمرور الوقت.. عرف الصحابة «عبادا» شابا ذا روحانية عالية، حتى إنهم كانوا يتندرون بموقف عجيب عندما خرج هو وأسيد بن حضير يوما من عند رسول الله ﷺ، وكان المكان مظلما، فخرج من عصا عباد نور أضاء له الطريق!!

كان بالفعل شيئا مدهشا، إلا أن «عبادا» كان على موعد مع موقف مدهش آخر.. في غزوة ذات الرقاع..

فبعد أن بدأ تأسيس الدولة الإسلامية، وبدأ الوعد الذي قطعه الأنصار على أنفسهم في التنفيذ، بدأت الحروب الضارية على المسلمين، والتي شارك عباد فيها جميعا .. فلم يتخلف عن واحدة منها..

في بدر وأحد والأحزاب وخيبر..

وفي الوقت الذي بدأت الدولة الإسلامية تستقر في المدينة، وبعد أن نجح الرسول ﷺ نجاحا سياسيا مبهرا بعد صلح الحديبية، وبعد انتصار ساحق ماحق للمسلمين في خيبر..يقود الغباء قبيلتي بني ثعلبة وبني محارب من غطفان، إلى أن يتجمعا للهجوم على المسلمين.

وبطبيعة الحال يصل الخبر للرسول ﷺ، ويتجهز المسلمون للهجوم على غطفان في جيش قوامه سبعمائة محارب..

وانطلق الجيش في غزوة ذات الرقاع..

واستسلمت غطفان دون قتال منكسرة ذليلة..

وعند عودة المسلمين للمدينة، كان لعباد بن بشر موقف إيماني عجيب.

ومدهش.

* * *

«نم أنت يا عمار»

نطق بها عباد بن بشر لعمار بن ياسر الذين اختارهما الرسول ﷺ لتسلم نوبة الحراسة الليلية، بعد أن نزل المسلمون بمكان للمبيت وهم عائدون إلى المدينة من غزوة ذات الرقاع، ورأى عباد أخاه عمارا مجهدا فأحب أن يريحه ويكمل هو نوبة الحراسة وحيدا..

لا ليس وحيدا..

لقد أراد أن يناجي فيها ربه..

وما أحلى أن تناجي ربك في جوف الليل يا عباد..

ألقى عباد نظرة إلى المكان، فوجده آمنا يتيح له الفرصة بأن يصلي ركعتي قيام بين يدي الله في هدوء وخشوع..

«الله أكبر».

همس بها عباد وهو يبدأ صلاته في سعادة من سيبدأ رحلة جميلة ممتعة..

وبدأ عباد يسلك طريق الرحلة بقراءة سورة حبيبة إلى قلبه:

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف].

عاش عباد مع سورة الكهف بآياتها الرقيقة وما تحكيه من قصة شباب آمنوا بربهم فزادهم الله هدى وتقى..

وينهي عباد الركعة الأولى ويبدأ ركعته الثانية.

وبينما هو يعيش حالما في عالم جميل موصول بالله، إذا بسهم مجهول شديد السرعة يصيب ذراعه في قوة..

لكن المفاجأة أن «عبادا» لم ينزعج أو يهم بقطع صلاته، فلقد أصر مع حالة الروحانية الطاغية، والتوحد الشديد مع آيات سورة الكهف الانسيابية الجميلة أن يستمر..

فنزع عباد السهم في هدوء، وأخذ الدم ينزف من ذراعه، بينما هو مستمر في مصاحبته لآيات سورة الكهف لا يريد أن يفارقها..

إلا أن سهما آخر أصاب يده بعد دقائق، جعل لزاما عليه أن يتنبه للموقف، فربما يكون الوضع خطيرا، وأن هجوما وشيكا قد يقع على المسلمين، وفي سرعة..أكمل عباد صلاته، فركع وسجد، ووكز عمارا بذراعه وهو ساجد ليوقظه، ثم قرأ التشهد وأتم صلاته..

وعندما أفاق عمار وجد «عبادا» وهو يمسك ذراعه يحاول أن يوقف نزيفه، وقد أصابه الإعياء وهو يقول:

- قم يا عمار للحراسة مكاني.. فقد أصبت.

وبسرعة وقوة..انتفض عمار ليحدث ضجة يرهب بها من حاولوا التسلل، ففروا هاربين، وهنا صاح عمار مندهشا وهو يبحث عن ضمادة ليوقف بها نزيف عباد قائلا:

سبحان الله..

هلا أيقظتني أول ما رميت؟!

نظر إليه عباد وقد نسي بعضا من ألمه وهو يقول:

– كنت أتلو في صلاتي آيات من القرآن، ملأت نفسي روعة فلم أحب أن أقطعها. والله، لولا أن أضيع ثغرا أمرني الرسول ﷺ بحفظه، لآثرت الموت على أن أقطع تلك الآيات التي كنت أتلوها!!

يا لله.. أهذه الدرجة من التعلق الروحي والارتباط بالقرآن وصل عباد ؟! إلى درجة أنه يفضل الموت على أن يقطع مصاحبته لآيات الله ؟!

إن هذا الموقف لأعظم دلالة على شوق عباد الجارف للقاء الله..

ولم تكن إلا أربع سنوات بعدها .. حتى أحب الله لقاءه كما اشتاق عباد منذ زمن..

ففي السنة الحادية عشرة من الهجرة، وفي خلافة أبي بكر الصديق، أرسل خالد بن الوليد ليحارب مسيلمة الكذاب في معركة اليمامة..

وقبلها بيوم واحد وصلت الرسالة إلى عباد في منامه..

وما أن استيقظ حتى انطلق إلى أبي سعيد الخدري يحكي له ما رأى قائلا:

يا أبا سعيد.. رأيت الليلة كأن السماء قد فرجت لي، ثم أطبقت علي..

وإني لأراها إن شاء الله الشهادة.

فقال له أبو سعيد الخدري مستبشرا:

خيرا والله رأيت.

الآن يبدأ عباد يومه وهو على علم أنه على موعد للقاء الله..

الآن يبدأ عباد يومه وهو يعلم أنه يقترب جدا من الرسول ﷺ وأصحابه الذين سبقوه بالشهادة..

الآن يبدأ عباد يومه وهو يريد أن يرفع مكانه في الجنة درجات ودرجات.

وبدأت معركة اليمامة..ووصلت المعركة إلى مرحلة حرجة تفوق فيها جيش مسيلمة تفوقا واضحا، مما دفع خالدا أن يطلب من المسلمين تصنيف أنفسهم إلى مهاجرين وأنصار وفئات أخرى..

وهنا تقدم عباد..ووقف بكل حماس ينادي في الأنصار ويرغبهم في الشهادة ويذكرهم بقول الرسول ﷺ لهم قائلا:

يا معشر الأنصار..أنتم الشعار، والناس الدثار..

فلا أوتين من قبلكم.

ثم تابع بكل ما أوتي من قوة:

يا معشر الأنصار ...

حطموا جفون السيوف، وتميزوا من الناس.

ووجد نداء عباد الصادق المخلص صداه لدى الأنصار، فسارع إليه أربعمائة رجل كلهم من الأنصار، حتى وصلوا إلى باب حديقة كان يتحصن فيها جيش مسيلمة، وقادهم عباد مع أبي دجانة والبراء بن مالك في قتال ضار مرير.

وقاتل الأنصار بكل ما أوتوا من حماس..

وقاتل المهاجرون وكل المسلمين في معركة ضارية، انقلبت فيها الموازين لصالح المسلمين..

وانتصر المسلمون انتصارا كبيرا..

واستشهد عباد بعد أن قاتل قتالا ضاريا، وقد ضرب في وجهه ضربات كثيرة ضيعت ملامحه تماما، فلم يتعرف عليه أبو سعيد الخدري إلا بعلامة في جسده..

استشهد عباد بعد معركة بطولية كبيرة.. وأنهى حياته كبطل همام تذكره الأجيال والتاريخ..

استشهد عباد كما رأى في منامه، وكما تمنى طوال حياته، ولقي ربه كما كان يريد وهو في الخامسة والأربعين..

استشهد عباد بعد أن نذر حياته لرسالة الإسلام موفيا وعده مع رسول الله ﷺ يوم العقبة..

استشهد عباد بعد أن كان يرى في مواقع الجهاد والتضحية، ويفقد في مواطن النصر والغنيمة..

استشهد عباد وله من الأجر ما شهدت به عائشة أم المؤمنين:

ثلاثة من الأنصار لم يجاوزهم في الفضل أحد:

سعد بن معاذ..وأسيد بن حضير..وعباد بن بشر.

استشهد عباد..ليذهب إلى قبره المضيء..

ولم لا؟! فلقد أصبح عباد بعد إسلامه يعرف كيف يتعامل مع الظلام..

في الدنيا يضيء ظلام الطرقات بعصاه..

وفي الآخرة يضيء ظلام قبره بأعماله.

هنيئا لك يا عباد..

فلقد أضاء الإسلام حياتك.. وآخرتك.

* * *

دروس وتحليل

١- الإسلام يدعو إلى الوحدة ويحارب الطائفية (عباد يتعاون مع مصعب في التقريب بين الأوس والخزرج).

أخطر ما يواجه الإسلام التفريق بين أبنائه في الوطن الواحد على أساس طائفي أو مذهبي، وهوالمخطط الذي يعقد عليه أعداء الإسلام والعرب آمالا عريضة في محاربة المسلمين، فيخططون للإيقاع بين المسلمين والمسيحيين، أو بين السنة والشيعة، وهو ما يظهر أثره بصورة عنيفة في العراق المنكوب.

إن الإسلام يدعوالى قوة الأوطان عن طريق تماسك شعوبها وتلاحمهم، بغض النظر عن دياناتهم، والشعوب هي حصن الأمان الدائم للوطن ضد أعدائه، فإذا تفككت أوصاله..انهار كل شيء.

٢- كل مسلم يعمل في مجاله يقف على ثغرة من ثغور الإسلام (عباد كان يقف على ثغرة حراسة الجيش).

ينظر كل إنسان إلى موقعه في العمل نظرة مادية بحتة، وهوأنه مجرد عمل لكسب القوت، وهو ما جعل كل فرد في المجتمعات الإسلامية والعربية يعمل لنفسه على خط منفصل، لا يلتحم بحلم يجمع الأمة على هدف واحد، وهو ما يؤدي إلى غياب الحلم المشترك والمشروع القومي الذي يحيي الأمم ويدخلها في ميدان السباق مع غيرها، والإسلام يحث أي شخص أيا كان ومهما كان عمله بسيطا، أن يعتبر عمله ثغرة من ثغور الإسلام أوالوطن يقوم هو بحراستها، فإذا أهملها.. يدخل منها أعداؤنا للنيل منا، ومثل هذه الثغور.. المذاكرة والزراعة والإعلام....إلخ.

إن الإسلام يهدف إلى تجميع الأمة كلها على هدف واحد، ينفذ هذا الهدف شبكة من التخصصات المختلفة والتي تمثل خيوط الشبكة التي يمسكها كل فرد يعمل في مجاله، سواء كان هذا العمل بسيطا أو عظيما.

٣- إيجابية عباد كانت أحد أدوات النصر في معركة اليمامة (عباد ينادي في الأنصار ليتجمعوا حوله بعد تأزم الموقف في معركة اليمامة).

الإيجابية صفة مطلوبة على الدوام وخصوصا في أوقات الشدة، وهي صفة ذاتية تنبع من الشخص نفسه دون ضغط من أحد، وهو ما حدث لعباد وغيره من الصحابة في معركة اليمامة،

عندما شعروا بخطورة الموقف على المسلمين والإسلام، فبادروا بتجميع الأنصار والمهاجرين حولهم، وقاموا بتحميس إخوانهم بشدة حتى نجحوا في حسم المعركة لصالحهم.

إن الإيجابية صفة أخذت تنحسر من مجتمعاتنا لتحل محلها « الأنامالية » والأنانية، وتبع ذلك السكوت عن الأخطاء الواضحة الصريحة، حتى أصبحت الأخطاء التي كنا نعتبرها فادحة يوما ما، واقعا مرا مفروضا علينا، وأصبحت مواجهته بالغة الصعوبة.

* * *